اختلاف الأحزاب من أهل الكتاب حول حقيقة عيسى ابن مريم:

لم تشهد أمَّةٌ في التَّاريخ الإنساني اختلافاً شديداً وقع حول حقيقة إنسان ما، مثل الاختلاف الَّذي وقع بين أهل الكتاب حول شخصية عيسى ابن مريم عليه السلام وحقيقته.

اختلافاً أدَّى إلى خروجٍ عن المألوف في كثيرٍ من أمور الحياة بين بني البشر، وجعل بعضهم ينسج حول عيسى ابن مريم هالةً من المعتقدات الواهية الَّتي تمجُّها المسامع، وتأباها العقول السَّليمة. قال تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥] فاختلافهم كان حول طبيعة عيسى ابن مريم كما دلَّ عليه السِّياق.

فمن قائلٍ: إنَّ الله هو المسيح ابن مريم، وهم اليعقوبيون أتباع يعقوب البراذعي.

ومن قائلٍ: إنَّ المسيح ابن الله. وهم الأغلبية من النَّصارى.

ومن قائلٍ: إنَّ المسيح ثلاثة (الأب والابن والروح القدس) وهم المَلْكَانِيُّون.

ومن قائلٍ: إنَّ المسـيح ذو طبيعتيـن: طبيعة إلهية وطبيعة بشرية. فهو إلهٌ حقيقيٌّ، وبشـرٌ حقيقيٌّ في الوقت نفسه؟ وهم الكاثوليكيون.

ومن قائلٍ: إنه وأمِّه إلهان من دَون الله، وهم البربرانيون.

ومن قائلٍ: إنَّ المسـيح بشرٌ مَّمن خلق الله ليس يتميَّز عن غيره في أصل الخلقة ولا مراحل النَّشأة. وهؤلاء هم المؤمنون من النَّصارى. وهم أصحاب بولس الشَّمشاطي.

وهؤلاء جميعهـم -باسـتثناء المؤمنين- قـد حكم الله بكفرهم كفـراً صريحاً في آياتٍ كثيرةٍ من كتابــه العزيز، وفنَّد أباطيلهم، وأوهى حججهم.

قــال تعالــى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٧].

فالله جلَّ وعلا حكم بكفر من قال: إنّ الله هو المسيح ابن مريم، وزعموا أنَّه نزل إلى الأرض، وتمثَّل في رحم امرأةٍ على

شــكل جنينٍ، ثمّ خرج من حيث يخرج الولــد، ونما وترعرع كأيِّ مولودٍ آخر يتغذّى وينــام. تعالى الله عما يقول الظّالمون علوّاً كبيراً.

فهــؤلاء قد كفروا بحقيقــة الله، وأنزلــوه مترلة خلقه من البشــر، وهو ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فالّــذي زعموه أنّه إلهٌ ما هو إلا مخلــوقٌ لله لا يملك من أمره حولاً ولا قوّةً، فهو يأكل ويشــرب ويمرض وينام، وتعتريه كلُّ عوامل الضّعــف والحاجة. ولا يملك أحــدٌ من المخلوقات كائنــاً من كان أن يردَّ قضاء الله وقدره إذا أراد إهلاك المســيح ابــن مريم وإهلاك أمِّه، بل إهــلاك كلِّ من في الأرض جميعاً. فهل يهلك الإله الحقيقي نفســه؟ وهل يهلك من كانت ســبباً في وجوده؟ وعيســى لا يملك حقَّ السَّيطرة على مصير من في الأرض جميعاً؛ لأنّه خضع لعوامل الخلق والتّكوين.

إنَّ الله هو المعبود بحقٍّ في يده مقاليد السماوات والأرض يملكها ملكاً حقيقيّاً مطلقاً لا ينازعه فيه غيره.

وفي يده مصير كلِّ ما بين السماوات والأرض من مخلوقاتٍ يتصرَّف فيها كيف يشاء. فهو سبحانه واجب الوجود.

ونجد في آيات آخرى من القرآن أنَّ المســيح ابن مريم نفسه قد أثبت لنفسه العبودية لله خالقه ورازقه، وبيَّن عاقبة المشركين بالله غيــره، وهي الحرمان من الجنَّة مطلقــاً الَّتي هي دار النَّعيم المقيم، والخلود في النَّار هي دار الشقاء والعذاب حدث لا ناصر له ولا معين. قــال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

والفئــة الثَّانية من الَّذين حكم اللــه بكفرهم من النَّصارى هم القائلون: إنَّ المســيح ابن مريم ابن الله؛ لأنَّه اشتبه عليهم الأمر في ميلاده من عذراء لم يمسســها بشــرٌ، مــا دفعهم إلى أن ينســجوا حول مولده نسيجاً واهياً من المعتقدات الفاسدة. فهم يقولون: إنَّ الله تعالى عندما أراد أن يرفع عن البشــر جرم خطيئة أبيهم آدم الَّتي ارتكبها في الجنَّة عندما أكل من الشَّجرة الَّتي كان قد نهاه الله عــن الأكل منها، فأنزله الله إلى الأرض. فعمت الخطيئة جميع نســله من بعده تبعاً، بعث بابنه الحبيب فداءً للبشرية يُصلَب، ويُقتَل، ويُدفَن، ثمَّ بعد ثلاثة أيامٍ يقوم من الأموات، ويصعد إلى حيث أبوه في السَّماء.

هذه التُّرَّهَاتِ الَّتي نســجها أعداء الإنســانية الوثنيون من يهود الشــتات ونصارى بولــس، ردَّ الله عليهــا وحكم بكفر قائليهــا، وبيَّن مصيرهم، وحدَّد مآلهم يوم القيامة إن هم ماتوا، ولم يرجعوا عن مقالتهم الشَّنيعة.

قال تعالــى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾

[مريم: ٨٨-٩٥].

القائلون بهذه المقالة الشَّنيعة هم من أهل الكتاب من يهود ونصارى. قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ﴾ [التوبة: ٣٠].

فاتِّخاذ الله للولد-بزعمهــم الباطل-تمَّ عن طريق امتزاج النَّاسوت باللاهوت، ناسوت مريم ولاهوت جبريل عليه السلام. وهذا محض افتراء من النَّاحية العقلية؛ لأنَّ النَّاســوت واللاهوت لا يمكن أن يمتزجا امتزاجاً يشكِّلان معه عنصراً واحداً. والرَّحمن

الَّذي جـاء ذكره في القـرآن أكثر من مرَّةٍ، هـو المنعم بالنِّعم الابتدائية الابتلائية، أي: هـو المنعم بكلِّ هذا الوجود، ومافيه من سماواتٍ وأرضين، وما بينهما وما فيهما من خلائق، ابتداءً غير مراعٍ فيه استحقاقاً ولا غيره، من حيث هو المنعم.

وقدرة الرَّحمن على هذا الإنعام دليلٌ على أنَّه لا يفتقر إلى ولدٍ أو معينٍ يعينه على إنعامه. قال تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [يونس: ٦٨]. ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾ [مريم: ٨٩] أي: شيئاً ثقيلاً شديد الإنكار لا يقبله العقل منطوقاً ولا مفهوماً. وهو (العجب والأمر الفظيع العظيم الدَّاهية[١]).

فلو جاز أن يكـون للرَّحمن ولدٌ لكان الرَّحمن غير واجب الوجود الَّذي يمتنع عليه العدم. ولو كان ينفصل عنه ولدٌ لكان مركّباً، ولو كان مركّباً لكان جائز العدم، وهو محالٌ.

فادِّعـاء انفصال الولد عن الرَّحمن -سـبحانه- أمرٌ منافٍ لوجوب الوجود عقلاً، فكيف يقبله وجود السَّماوات والأرض والجبال الدَّالة على أنَّ الرَّحمن واجب الوجود، وهو أمرٌ قائمٌ

(١) راجع لسان العرب لابن منظور مادة (أدد).

قطعاً؟. ولو لم يكـــن واجب الوجود حقيقةً قائمـــةً واقعةً لما أمكن أن توجد السَّـــماوات والأرض والجبال والكون بأمره، ولكنَّــه وجد فدلَّ على أنَّ الرحمـــن واجب الوجود وهو المطلـــوب. ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴾ [مريم: ٩٠ – ٩٢].

أي: من أجل أن دعوا للرَّحمن ولداً من دون مســـتندٍ عقلي ولا نقليٍ، فإنَّ الســـماوات تقرب مـــن أن تنفطر على الرغم من حبكها المتقن من هذه الدَّعوة المفرغة من كل برهانٍ أو سلطانٍ. والأرض على صلابتها ودحيها توشك أن تنشق وتبتلع من عليها. والجبال الرَّاســـخات العاليات ذات الصَّلابة العالية توشك من عظم فداحة هذه الدّعوة الباطلة أن تخرَّ قمَّتها إلى قاعها مهدودة مفتَّتة الأجزاء. كلُّ ذلك يوشـــك أن يكون لولا أنَّ دعواهم باطلة منافية للإنعام بوجود تلك الأصناف من المخلوقات.

فالسَّـــماء جعلها الرَّحمن للإنسان ســـقفاً مرفوعاً، وجعل الأرض مقرّاً موزوناً، يمشـــي في مناكبها، ويأكل من رزق الله عليها، وجعل الجبال الشَّامخات على الأرض لتحفظ توازنها؛ لئلا تحيد بمن عليها أو تنهار.

وما جاء في الآية الكريمة تهويلٌ للدَّعوى المستلزمة عدم الاعتراف بهذه الإنعامات، إذ لو كانت هذه الدَّعوى حقّاً لما وجد شيء من ذلك، ولما وجد الرَّحمن المنعم بكلِّ هذه الإنعامات وغيرها، ولما وجدت هذه الإنعامات نفسها. ولكن وجودها حقيقة واقعة، فهذه الدَّعوى غير مقبولةٍ لا في السَّماء ولا في الأرض ؛ لذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٢] فالابتغاء مطاوعُ (بغى) الشَّيء فانبغى الشَّيء.

فالرَّحمن المنعم بهذه النِّعم كلِّها وغيرها لا ينبغي له الولد، ولا يبغي ولداً. أي: لا يصحُّ، ولا يستقيم أن أن يكون له ولدٌ؛ لأنَّه منافٍ لطلبه العقلي وطلبه الحاجي.

أمَّا العقلي فإنَّه منافٍ لواجب الوجود، وأمَّا الحاجي فإنَّه منافٍ لقدرته على تحقيق كلِّ ما يريد.

وإذا ثبت ذلك فكلُّ ما في السَّماوات والأرض بل الوجود وما فيه عبيدٌ لله تعالى كما أخبر سبحانه وتعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴾ [مريم: ٩٣] بما فيه عيسى والأرض، فإذا كان عقلاء هذا الوجود لا يأتون الرَّحمن يوم القيامة إلا عبيداً، فكلُّ ما سواهم أولى بهذا الحكم ﴿ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ [مريم: ٩٤ — ٩٥].

فلا يغيب منهم أحدٌ ولا يمتنع منهم أحدٌ بقوَّةٍ ولا بسلطان، فالكلُّ قادمٌ إلى ربِّه يوم الحشر الأكبر بمفرده يقدمه عمله، فإمَّا شقيٌّ وإمَّا سعيدٌ.

إنَّ أصحـاب هـذه المقالة البعيدة كلَّ البعـد عن كلِّ حقٍّ وحقيقةٍ فضح الله أمرهـم عندما قال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣٥].

فعزير الَّذي جمع التَّوراة بعد خروج اليهود من سبي بابل، واعتبـروه ابناً لله من أجل ذلك وقع في جمعه للتَّوراة تحريفٌ

وتبديلٌ عظيمان أخرج توراة موسـى عن أصلها ما دفع علماء يهود من بعـده إلى تصحيح ما وقع فيه مـن أخطاءٍ بحذفٍ أو إضافةٍ ووضعوا ذلك التَّصحيح في كتاب أسموه (التَّلمود) الَّذي لم يسـلم هو الآخر من تحريف وتبديل دفع من جاء بعد ذلك من علماء يهود إلى تصحيحه، في كتاب أسموه (المدارش) ثمَّ بعد مجيء القرآن الكريم بيَّن الحقَّ من الباطل، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وأمَّا قول النَّصارى المسـيح ابن الله فمن حيث النَّسـل، كقول العرب في الجاهلية: الملائكة بنات الله.

وكلٌّ من اليهود والنَّصارى القائلين بهذه المقالة يشـبهون قول البراهمة من اليهود القائلين بتثليث الإله، ويشـبهون أيضاً قـول البوذيين في بوذا القائليـن: إنَّ (بوذا) كائنٌ لاهوتي هبط إلى هـذا العالم لينقذه مما فيه من شـرورٍ(١). فهـم قد ورثوا عنهم الكفر الصراح، وقد انطوت أنفسهم على أبشع النّعوت، وأرْدَاهَا لله تعالى. فقد طردهم الله من رحمته الَّتي وسعت كل شيءٍ بسبب إفكهم وقتلهم الأنبياء.

---

(١) راجع كتاب مقارنة الأديان «أديان الهند الكبرى» لأحمد شـلبي، ط٢، سـنة ١٩٦٦م، مكتبة النَّهضة المصرية، ص١٦٨.

ثمَّ أوضح تعالى أنَّ الَّــذي أورد أولئك اليهود والنَّصارى المهالك إنَّما هم الأحبار والرُّهبان -العلماء منهم- الَّذين زيَّنوا لهم الباطل، وقلَّبوا لهم الأمور، فأحلُّوا لهم الحرام فاستحلُّوه، وحرَّموا عليهم الحلال فحرَّموه.

روى التِّرمذي عن عديٍّ بن حاتم قال: أتيت النَّبي ﷺ وفي عنقــي صليبٌ من ذهب، فقال: «**ما هذا يــا عديُّ، اطرح عنك هذا الوثن**» وسمعته يقرأ سورة (براءة) ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ [التوبـة: ٣١] **ثمَّ قال**: «**أما إنَّهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنَّهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شــيئاً استحلُّوه وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموه**»(١).

ومن جملة ماحرَّف الرُّهبان وهو أخطره، أن أوهموا أتباعهم بربوبية عيسى ابن مريم وألوهيته، فكان أن عُبِدَ من دون الله أو جُعِلَ ندّاً لله. وهو بريءٌ مَّما يقولون، ويفعلون والله بريءٌ من المشركين ورسولُه.

وحقيقة الأمر وجوهره أنَّ جميع من خلق الله، وما يخلق مأمــورون من ربِّهم ووليِّ نعمتهم وخالقهــم بعبادته وحده

---

(١) انظر جامع التِّرمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ من سورة التَّوبة.

لا إله معبودٌ بحقٍّ سواه وهو منزَّه عن كلِّ شرك المشركين. وأولئك المشركون من أحبار ورهبانٍ وأتباعهما قد استهدفوا من شركهم وافتراءاتهم على الله إطفاء نوره الَّذي جاء به كلُّ الأنبياء والرُّسل، والَّذي يتمثَّل في توحيد الله واتِّباع شرعه.

ووسيلتهم في ذلك الإطفاء أفواههم. والفم أداة القول.

والإخبار بالقول له نسبةٌ كلامية، وإنَّ الحقائق في الخارج لها نسبةٌ واقعيةٌ. فإذا نطق الفم بخبرٍ نسبته الكلامية كنسبته الواقعية يكون إخباراً حقيقيّاً يترجم عن الشَّيء الواقعي إيجاباً أو سلباً.

أَمَّا لو لم تكن نسبةٌ واقعيةٌ فإنَّه يكون مجرَّد نسبةٍ كلاميةٍ لا حقيقة لها.

وكلامهم بأفواههم لإبطال الهُدَى الَّذي جاء به الأنبياء المهتدون لا حقيقة له بل هو مجرَّد كلامٍ بالأفواه لا يترجم عن حقيقةٍ واقعيةٍ: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] من الإباء وهو الامتناع. وإتمام النُّور هو تبليغ النَّاس رسالات ربِّهم بواسطة الرُّسل في عصورٍ مختلفةٍ. والتَّعبير بالأفواه، فيه تهكُّمٌ بالمشركين، وإثباتٌ لعجزهم. والنَّار

لها ضياءٌ وبريــقٌ، فإذا خمدت شــعلتها زال ضياؤها وبريقها وتوهُّجها. وبالضِّياء والبريق تظهر حقائق الأشياء حولها، وإذا طفئت اختفت الأشياء بحقيقتها.

فلذلــك عبَّر عن إبطــال حقائق الهدى -الَّذي هو أشــبه بالنُّور- بالإطفاء، وأوضح ســبحانه وتعالى أنَّ أغلبية الأحبار مــن اليهــود والرُّهبان من النَّصــارى إنَّما شــأنهم أكل أموال النَّاس بالباطل والبهتان عن طريق الزَّيف والخداع المتمثِّل في أكلهم الرِّبا وفي رســوم الأديرة والكنائس للحصول على بركة القسيس، والحصول على صكوك الغفران الَّتي تدخل صاحبها -كما يزعمون- الجنَّة على ما كان وما ســيكون من عمله. كلُّ ذلك باسم الدِّين الَّذي لم ينزل به من سلطان، وإنَّما عملهم هذا لكسب الأموال وأكلها بالباطل.

وإذا ما أراد الله بأحدهم خيراً، وشــرحَ صدره للإســلام الحقّ، فإنَّهم يحاولون صدَّه عن ذلك خوفاً من انتشــار الحقِّ بين رعاياهم؛ لئلا تبطل رئاستهم، وينقطع مورد رزقهم الحرام. ولكنَّ الله قد تكفَّل بإظهار هداه ودينه بالحق على سائر الأديان على الرغم من أنف كلِّ جاحدٍ واعتراض كل كارهٍ مشركٍ.

ولقد عملوا على جمع تلك الأموال وتكديسـها في أماكن خاصة وصرفها على الملذَّات والشَّـهوات وإشاعة الباطل من معتقداتهم، ومنعوها مستحقِّيها من فقراء ومساكينَ، وهم بذلك قد غفلوا في عملهم هذا عن حقيقة مرَّة وواقعٍ أليمٍ ينتظرهم يوم القيامـة: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٥].

قال القرطبي في تفسيره: (والكيُّ في الوجه أشهر وأشنع؛ وفي الجنب والظهَّر آلم وأوجع؛ فلذلك خصَّها بالذِّكر من بين سائر الأعضاء.

وقال علماء الظَّاهـر: إنَّما خصَّ هذه الأعضاء؛ لأنَّ الغني إذا رأى الفقير زوى ما بين عينه وقبض وجهه، وإذا سأله أعرض عنه، وإذا زاده في السُّـؤال وأكثر عليـه ولاه ظهره. فرتَّب الله العقوبة على حال المعصية[١].

وأمَّا الَّذين قالوا: إنَّ الله ثالث ثلاثةٍ، فقد جمعوا بين الكفر والشِّرك بالله معاً.

(١) راجع كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي عند تفسير سورة التَّوبة، آية ٣٥.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى
ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ
مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ
إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

لقد خاطب الله في هذه الآيات مشركي النَّصارى الَّذين تجاوزوا الحدَّ في نبيِّهم عيسى ابن مريم، فأطروه إطراءً أخرجه عن حقيقته، وجاوز به عن قدره فقالوا: إنَّه إلهٌ أو ابن إلهٍ، وقد ضلُّوا بذلك عن الحقِّ. فما المسيح عيسى ابن مريم إلا رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، عبدٌ أنعم الله عليه وجعله مثلاً لبني إسرائيل. جاءهم بالإنجيل كتاباً من عند الله فيه هدًى ونورٌ.

وما عدا ذلك من المعتقدات في عيسى ابن مريم فهو باطلٌ ومحض افتراءٍ.

والإطراء من الصِّفات المذمومة الَّتي تنهى عنها الشَّرائع؛ لما لها من وقعٍ سيئ في النُّفوس، وما تجرُّه على ضعفاء العقول من ملابسات وأوهامٍ. فهذا نبيُّ الإسلام ﷺ ينهى أمَّته عن الإطراء فيه قائلًا: «**لاتطروني كما أطرت النَّصارى عيسى ابن مريم، فإنَّما أنا عبدالله ورسوله**»(١).

وعندما قال له أصحابه ذات يومٍ: يا سيِّدنا وخيرنا وابن خيرنا قال لهم: «**يا أيُّها النَّاس، قولوا بقولكم ولا يستهوينَّكم الشَّيطان، أنا محمَّد، عبدالله ورسوله، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق مترلتي الَّتي أنزلني الله عزَّ وجلّ**»(٢).

والمسيح ابن مريم عليه السلام حجَّة الله على عباده، أبدعه من غير أبٍ وأنطقه في غير أوانه، وأحيا الموتى على يديه. ويشبه في أصل خلقه أباه آدم عليهما السَّلام قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وإنَّ كلمة (من) في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ليست للتَّبعيض، كما يدَّعي بعض النَّصارى الَّذين استدلُّوا بالآية على

(١) راجع مسند الإمام أحمد بن حنبل شرح أحمد محمَّد شاكر، ط٤، دار المعارف بمصر رقم (١٢٥٧٨) وإسناده صحيح. وانظر أيضاً صحيح البخاري، كتاب حديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ...﴾.
(٢) رواه النَّسائي عن أنسٍ بسندٍ جيِّد، في اليوم واللَّيلة. انظر تحفة الأشراف ١/ ١٣٠.

أنَّ المسـيح جزءٌ من روح الله، ومن ثم فهو إلهٌ. بل هي لابتداء الغاية، كما في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣].

روى البخاري عن عبادة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: «**من شهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبدالله ورسـوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه والجنَّة حقٌّ والنَّار حقٌّ أدخله الله الجنَّة على ماكان من العمل**»(١).

ونهى الله النَّصارى عن القول: إنَّ الله ثالث ثلاثةٍ. فقد صنَّف طائفـةٌ من النَّصارى (الأب والابـن وروح القدس) إلهٌ واحدٌ ذو أقانيم ثلاثةٍ تُشبه في الإنسـان اليد الواحدة تتفرَّع عنها الأصابع. وهذا بلا شـكٍّ قولٌ باطلٌ وتشـبيهٌ مع الفـارق، اتَّبعوا في ذلك الشَّـيطان، فأغواهم وأغوى بهم، وأضلَّهم وأضلَّ بهم، فإيمانهم مع قولهم بالتثليث شركٌ محضٌ لا يغفره الله إذا مات عليه صاحبه.

وعلى الرغم من قولهم هذا وفداحتـه، فإنَّ الله دلَّهم إلى ما يصلح فسـاد قلوبهـم، ويجعلهم في النَّهايـة ينالون رضاه

(١) انظـر صحيح البخاري، كتـاب أحاديث الأنبياء، بـاب ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِي دِينِكُمْ ﴾ [النساء: ١٧١] الآية.

ومغفرتــه، وهو أن ينتهوا عمَّا يقولون ويعتقدون في نبيِّهم ﷺ، وأن يُنْزلوه مترلته الَّتي أنزله الله إيَّاها. وأن يترهوا الله عن أن يكون له ولدٌ؛ لأنَّ كلَّ مافي السَّماوات من ملائكةٍ وغيرهم وكلَّ ما في الأرض من مخلوقــاتٍ وكائناتٍ إنَّما هي تحت إمرته وتصرُّفه ومشيئته، وهو الكفيل عليها يتولاها برعايته، ويحفظها بحفظه. وهو كما وصف نفسه عزَّ وجلّ: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

ثمَّ أنتم أيها النَّصارى، أليس لكم في نبيِّكم الَّذي تدَّعون اتِّباعه أسـوةٌ حسـنةٌ؟ فهو لن يأنف، ولن يمتنع عـن أن يكون عبداً لله خالصاً في عبودتيه كما هي حقيقته، كأيِّ مخلوقٍ آخر. والملائكة المقرَّبون لن يستنكفوا عن أن يكونوا عبيداً لله؛ لأنَّهم كما وصفهم الله بقوله: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢].

وكلُّ من يستنكف عن عبادة الله والخضوع لعبوديته تعالى، فإنَّ الله يحاسـبه على ذلك يوم الجـزاء ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ [الشـعراء: ٨٨]، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

فلو أنَّ هــؤلاء النَّصارى حذوا حَــذو نبيِّهم عليه السلام في القول والعمل، لنجوا، ولكانــوا على الصِّراط المســتقيم. ولكنَّهم بغلوِّهــم في نبيِّهم أماتــوا دينهم، وحكموا على أنفســهم بما يعملون ويقولون بالكفر الَّذي عقوبته الخلود في النَّار.

وصدق الله حيث يقــول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

وأمَّا الفئة الَّتي تقول: إنَّ المســيح عليه السلام ذو طبيعتين: طبيعة إلهية وطبيعة بشرية، فهو إلهٌ حقيقيٌّ وبشرٌ حقيقيٌ في آنٍ واحدٍ؛ فإنَّهم يدخلون فــي زمرة القائلين: (وَلَّدَ اللــه) وقد حكم الله بكفر الجميع.

وأمَّا القائلون: إنه وأمّه إلهان من دون الله، فقد أخزاهم الله ببيان حقيقة ذلك بواسطة نبيِّه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام نفسه عند سؤاله إيَّاه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ

إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ
﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ
يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾

[المائدة: ١١٦-١٢٠].

محاورة عظيمة، في مشهد يومٍ عظيم، إذ الأبصار شاخصة، والقلوب واجفة والمُلْكُ يومئذ لله الواحد القهَّار: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩].

يسأل الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم سؤالاً استفهاميّاً تقريريّاً -وهو أعلم بحقيقة أمره- وإنَّما توبيخ وتبكيت للقائلين بهذه المقالة الدِّينية والفِرية العظيمة. يسأله ما إذا كان قد أمر النَّاس من بني إسرائيل أوغيرهم أن يؤلِّهوه من دون الله أو يؤلِّهوا أمَّه، ويصرفوا إليهما، ولو بعض جزءٍ من العبادة الَّتي لا تكون إلا لله وحده.

فيلهمه الله الجواب الكامل في السَّاعة الحاسمة والوقت المناسب.

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (يُلَقَّى عيسى حجَّته، فلقَّاه الله في قوله ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

قال أبو هريرة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم، فلقَّاه: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ...﴾ [المائدة: ١١٦] الآية[١]. أي: أنزِّهك عن هذه المقالة الدِّينية الَّتي لا تليق ولا يحقُّ لي قولها في حقِّك.

وقد علمت -سبحانك- بعلمك الشَّامل المحيط بكلِّ دقائق الأمور وجلائلها، إن كنت قد قلتها أو صدر عنِّي من القول ما يشبهها، فأنت تعلم ما تنطوي عليه الأنفس وما يخالجها من أحاسيس ومشاعر، ولا أحد يعلم ما في نفسك، فأنت علام الغيوب تعلم غيب السَّماوات والأرض وما فيهنَّ وما بينهنَّ، فسبحانك من إلهٍ عظيمٍ.

وكأنَّ سائلاً يسأل: إذاً ما الَّذي قلت لهم؟

فكان جواب عيسى ابن مريم عليه السلام لربِّه حينذاك: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧]. أي: ما أبلغتهم، ولا طلبت منهم

(١) رواه التِّرمذي باب من سورة المائدة (ح/ ٥٠٥٦)حديثٌ حسن صحيحٌ.

إلا ما أمرتني به بواسطة الوحي عنك: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. أي: اخضعوا، وأطيعوا الله وحده الَّذي ربَّاني وربَّاكم وربَّى جميع الخلائق بجزيل نعمه الظَّاهرة والباطنة، واصرفوا العبادة لله وحده لاشريك له.

وكنت عليهم في الحياة الدُّنيا شاهداً على ما يقولون ويعتقدون، فلمَّا استوفيت مدَّة حياتي على الأرض ورفعتني إليك، لم أعد أعلم ماصنعوا بعدي فانقطعت تلك الشَّهادة عني، وأصبحت أنت وحدك الرَّقيب عليهم في كلِّ أعمالهم ما ظهر منها وما بطن، وأنت على كل شيءٍ في الوجود مطلَّعٌ اطلاع مشاهدٍ له عالمٍ بأدقِّ أسراره، من قبل ومن بعد.

والكلُّ تحت مشيئتك وإرادتك خاضعة لك رقابهم مذعنون معترفون بذنوبهم، تقيم فيه عدلك، تعذِّب من يستحقُّ العذاب منهم، وإن تغفر لهم وتتجاوز عن سيِّئاتهم وما ارتكبوه من جرمٍ في حقِّك، فإنكَّ تغفر الذُّنوب جميعاً، وأنت العزيز الَّذي لا ينال جانبه، والحكيم الَّذي يضع الأمور في نصابها.

ولقد صدق عيسى ابن مريم ربَّه، فنفعه صدقه في يومٍ ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] عند ربِّهم وينالون مرضاته،

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائـدة: ١١٩]. هذا وعدٌ من اللـه الَّذي له ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائـدة: ١٢٠] مُلَّكاً حقيقيّاً مُطلقاً لا يشاركه فيه أحدٌ، ولا يقاومه أو ينازعه عليه أحدٌ.

وليس للمسيح ابن مريم عليه السلام وصفٌ من الأوصاف يمكن أن يتَّصف به فوق بشريته إلا وصف النُّبوة والرِّسالة فهو بشرٌ ممَّن خلق اللـه أنعم عليه بأن جعله نبيّاً ذو رسالة إلى بني إسرائيل يدعوهم بدعوة الرُّسل جميعاً: أن اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً.

وأمُّه كسائر النِّساء في صفتها البشرية، فهي مِّمن خلق الله، كرَّمها بنبوَّة عبده ونبيِّه عيسى عليهما السَّلام، طهَّرها من كلِّ الآثام، اشتهرت بمُلازمة الصِّدق في جميع أقوالها، وصَدَّقت بما جاء به ابنها من عند ربِّه واتَّبعته.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٧٥].

ولقد كنى عن بشرية المسيح وأمِّه بصفةٍ ملازمةٍ لكلِّ مخلوقٍ من البشر لا تترك في نفس المؤمن أي صدى من شكٍّ

أو تردَّدٍ، ووضعت المسـيح وأمَّه عليهما السَّـلام في الإطار الحقيقي الَّذي يجب أن يظهرا فيه.

وتلك الصِّفة هي حاجته الماسَّـة للطَّعام الَّذي يقيم أَودَه، ويحفظ له الحياة. ولَّما كان الجسـم بعد تناول الطَّعام يمتصُّ حاجته منه، فإنَّ الفضلات تبقى في الأمعاء مما يشـكِّل خطراً على الحياة إن لم يتخلَّص منها الإنسـان، ليحافظ على جسمه صحيحاً معافىً.

فبذلك انتفت صفة الألوهية عنهما. فهما كسـائر البشـر، وعيسـى كسائر الأنبياء والمرسـلين الَّذين قال الله عنهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٠].

الخطاب فـي الآية لنبيِّنـا الكريم عليه وعلـى إخوته من الأنبياء والرُّسل أفضل الصَّلاة والسَّلام. فالَّذي يكون في حاجةٍ إلى غيره لحفظ حياته وجلب رزقه وجميع شـؤون معيشته، لا يكون بحالٍ من الأحوال إلهاً بحقٍّ ولا يستحقُّ أن يُعبَد. فهو لا يملك لنفسه حولاً ولا قوَّةً، فكيف يملكها لعبيده.